الاستعماري المتفوقة اقتصادياً وعسكرياً، والمهيمنة سياسياً بنتيجة هذا التفوق. ووجود الدور المزدوج للقادة المشار اليهم هو دلالة أكيدة على ان الدول المنبثقة عن حركات التحرر الوطني، والدول التي منحت استقلالها على المستوى الشكلي، لم تكن قد وصلت مرحلة الاستقلال الناجز الذي طمحت اليه، ولا هي حصلت على هامش من القدرة على التحرك، الذي يؤمن لها الاستقلال النسبي في رسم سياساتها الاقتصادية والاجتماعية بما يتوافق واحتياجات السوق الوطني. بل تركت هذه الدول تصارع من أجل القضاء على المخلفات الاجتماعية والاقتصادية لمرحلة الاستعمار المباشر الذي لم يسهم بتطوير المستعمرات الاّ بما يتوافق واحتياجات السوق العالمي لدول المركز الاستعماري، دون الأخذ في عين الاعتبار الضرورات التنموية التي تفرضها الاحتياجات الاكثر الحاحاً لشعوب الدول المستقلة حديثاً.

هذا الواقع فرض على عبدالناصر وجيله من قادة الاستقلال الوطني في عموم بلدان العالم الثالث مهمتين هما: بناء الدولة وتنمية مؤسساتها في مختلف الميادين، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية؛ ومواجهة المحاولات الغربية للتدخل في تفاصيل سياسات الدول المستقلة حديثاً. ولم يكن التدخل الغربي في واقع تلك الدول ظاهراً للعيان على النحو الذي تمّ في حرب دول التحالف ضد العراق (١٩٩٠) وما بعدها، بل كانت التدخلات، تأخذ في غالب الاحيان، شكل انقلابات عسكرية. وقصة رئيس وزراء ايران الاسبق، مصدّق، الذي قام بتأميم النفط الايراني في مطلع الخمسينات، على سبيل المثال، أصبحت معروفة بعد ان تمّ الكشف عن ان الاطاحة به كانت بترتيب مسبق بين المخابرات البريطانية والمخابرات المركزية الاميركية. وبموجب الترتيب نفسه أعيد شاه ايران الى السلطة، بعد ان كان نُفي الى خارج البلاد بضغط من الشارع الايراني، الذي كان يدعم مصدّق في سياساته الوطنية المستقلة.

وتجلّى الطابع الثنائي الجامع بين مهمات الثورة والدولة أكثر ما يكون في تعقيدات مهمات عبدالناصر الذي كان قائد مصر العربية، مصر المسلمة، ومصر الافريقية. ولقد أدرك عبدالناصر باكراً هذا الدور المثلّث الاطراف لمصر، ولزعامته هو، وقد تحدّث عن الدوائر الثلاث في كتابه «فلسفة الثورة». وعالج عبدالناصر البعد العربي لدور مصر بالدعوة الى الوحدة العربية، واما البعدان الاسلامي والافريقي لهذا الدور، فقد تمّ العمل على تعزيزهما من خلال منظمة التضامن الافرو ـ آسيوي وحركة عدم الانحياز التي كان عبدالناصر أحد مهندسيها الكبار.

على انه لا ينبغي للمرء ان يبالغ بأهمية ما وصل اليه عبدالناصر من وعي لهذا الدور على صعيد الممارسة السياسية. فقد تحكّمت في سياساته العملية عناصر عدة فرضها الواقع السياسي المحلي في مصر، فضلاً عن الواقع العربي والدولي، والصراع مع اسرائيل. وفي أحسن الاحوال، يمكن القول أن مواقف عبدالناصر الثورية عكست الطموحات، في ما عكست سياساته على الارض الامكانات. ويذكر في السياق عينه أيضاً، ان الدور العربي لمصر ساهمت في خلقه الى حدّ كبير، الحالة الجماهيرية العربية المؤيدة لمصر وللقيادة المصرية اثر وقوع العدوان الثلاثي. فالجماهير العربية التي كانت تعيش تحت وطأة ضياع فلسطين وقيام اسرائيل على أرضها، وجدت في البريق السياسي لمصر، بعد العدوان، أملاً في قيادة عربية تسعى الى تحقيق الوحدة واسترداد فلسطين. والرأي العام العربي «المنفعل» بالحدث السياسي، لم يكن في ذلك الوقت، وربما حتى الآن، على بيّنة من حقائق التنازلات التي اضطر اليها عبدالناصر في مقابل انسحاب القوات المعتدية. فأجهزة الاعلام المصرية والعربية صوّرت الانسحاب البريطاني والفرنسي والاسرائيلي على انه نصر لمصر وهزيمة للعدوان الثلاثي؛ الاّ ان الامر لم يكن